المساواة

(٩)

يتناقشون

الاشخاص

السيدة جليلة — معلمة سنّ في الماضي فطنة متدلة الرأي
بي — تلميذة السيدة جليلة وكاتبة مقالات « المساواة »
بلاش واترات — فتاتان من أحدث طرز رفيقتا بيّ في المدرسة تتكلمان الفرنساوية
عرفي — نجل السيدة جليلة اشتراكيّ متحمس وذو قلب مخلص نبيل
عارف — أديب عرف الناس وتألم فأدّت به المعرفة الى شيء من الجود ولكنه يخفي وراء مظاهر القسوة والتهكم طبيعة حارّة صادقة خيرة
الاستاذ سامي — عالم فيلسوف
سيد بك — من الوجهاء ورئيس جمعية خيرية
زكي افندي — من المتأدبين لافكر له او له فكر يحجبه اعتناق كل رأي عابر وامتداح جميع الناس على السواء

الزمان والمكان

حوالي الساعة السابعة مساء في ردهة الاستقبال بمنزل والدتي بيّ

السيدة جليلة (وقد دخلت منذ عنيهة مع ولدها عرفي تعدل جلوسها باسمة في سرها من كلام تبدأ بها الحديث شأن من يصل الى مجلس سمت فيه المتحادثون عند مجيئه . والآخرون ينتظرون بعض الارتباك وراء علامات التأدب ليستأنفوا الكلام . فتبتسم السيدة جليلة لبيّ ثم تدير الطرف في الحاضرين وتقول :) - كانت لمجتكم عند دخولي لهجة مناقشة ومجادلة ، فايّ المشاكل العالمية كنتم تحلّون ؟ (يبتسم الجميع الابتسامة الاجتماعية المناسبة ويتبادلون)

بيّ — وصلتِ يا سيدتي عند احتياجي الى دفاعك عني . لقد كان هؤلاء السادة يحاولون بانصافٍ حلّ مشكلة التغاير والتفاضل التي لا تحلّ ، أمّا والظلم حليف العدل في الانسان فكانوا يمرّنون ظلمهم عليّ

زكي افندي (مسروراً باقتحام الفرصة ليتكلم) — اشهد الله العظيم انكِ انت التي ربطتنا جميعاً

السيدة جليلة — على ذكر التغاير والتفاضل اقول اني قرأتُ مقالاتك عن « المساواة » بمنتهى الاهتمام . وانتظر الباقي منها لأدرك النقطة المعينة في فكرك وقد هيأتِ من الاستنتاج والاستدلال ما هيأتِ لايصالنا اليها

ميّ — النقطة المعينة ؟ اذا دلّ بحثي على انّ لديّ شيئاً معيناً اقولهُ فقد قُلتُ حتى وفي التعبير عن رغبة ساقتني الى معالجة هذا الموضوع الجموح

سعيد بك — جاهرتِ في كلمة التمهيد باستعراض خلاصة ما تملئهُ الطبيعة والتاريخ والعلم لتستخرجي حكماً مجرّداً من غير ما تحيز ولا اندفاع . أليس في ذلك تعيين لنقطةٍ ما ؟

ميّ — بل في ذلك اعلان رغبة ومعاهدة اخلاص . ولكن —

عوني — ولكن — ؟

ميّ — ولكن كم من رغبةٍ نبديها مخلصين ونحسبها طبيعية مقبولة ثم تمرّ الايام فتدرك غروراً تكوّنت منهُ تلك الرغبة وحماسة لا يشفع بها الاّ ذلك الاخلاص ! (تأمل قصير) كيف زعمتُ ان استعراض خلاصة ما تملئهُ الطبيعة والعلم والتاريخ وايُّ إله أنا ليتبين لي ذلك ؟ (خجل) ولكني عوقبتُ بغروري نفسهِ اذ اني كنتُ بتوغلي في البحث تحدو بي ايداً تلك الرغبة الحارة كنت ازداد شعوراً بان ما أتلمسهُ من الخطوط التاريخية والعلمية والاجتماعية لن يوصلني الى شيء (صامتة) سوى الى تلقي رسائل التعنيف والتقريع من حضرات القراء الذين يريد كلٌّ منهم ان اذهب مذهبهُ وآخذ برأيهِ . (تعود الى التأمل) حسبت اني مقبلةٌ على موضوع لي ان اعالجهُ على ما اريد فاذا بالموضوع يسلجني قاذفاً بي من تيارٍ الى تيار ، ومن حيرةٍ الى حيرة ، ومن لجةٍ الى لجة . وها انذا اردّد سؤالاً القيتهُ على نفسي مراراً خلال هذا البحث : اين انا الآن ؟ أين أنا ؟

عارف — اي انك تتساءلين : اين المساواة ؟ اين اعثر على خيال المساواة ؟

ميّ — قد يكون هذا معنى سؤالي . قد وسّعتُ دائرة البحث حتى ضاع فيها الخيال الذي انشدهُ . او ان الدائرة التي ازعمها وسيعة اختنق فيها الخيال لضيقها خلتُ فوقي وفوقها هازئاً فلم أعد اراهُ واسمع صوتهُ

بلانش (تتثاءب وتسأل رفيقتها بالفرنسوية :) — عن اي شيء يتكلمون ؟

انتوانت — عن الشيء الذي كانوا يتكلمون عنهُ عند مجيء السيدة جليلة

عوني (هادئاً في الظاهر ولكنَّ اهتمامه يبدو في نظره ولهجته) — أتريدين ان تلمحي خيال المساواة ، ايتها الانسة ؟ أتريدين ان تسمعي اصواتاً تناديها بلجاجة ؟ إذن اقفلي باب مكتبتك وانسي ما كتبت عنها وما يكتبون ، ولا تكتفي بالنظر الى السابلة من وراء سجوف النوافذ فما تلك الحياة الظاهرة الاَّ حاشية بمد صفحة الحياة . اتركي كلَّ ذلك وانزلي الى ميدان الحياة السوداء حيث القلوب تدمي ، والعيون تدمع ، والقوى تضيع جزافاً . امتزجي بذوي الاطمار البالية ، جوعي مع الجائعين ، احتاجي مع المحتاجين ، واصغي الى الشكاوى والتوسلات تنطلق من بين شفاه الفقراء والمرضى والمحرومين انطلاق الدم من الكلوم البالغة . تمحَّصي عقولاً تطلب من المعرفة والنور غذاءها ولكن البؤس اقفل في وجهها ابواب المدارس ، وحرمها الكتب والفنون وجميع مشاهد الجمال والرقي التي اوجدها الفكر الانساني . (بشيء من التحمس) وعندما ترين كلَّ ما يتمتع بهِ الكسالى الظالمون الذين احتكروا الصحة والهناء والرخاء لنفوسهم ، عند ما ترين جهاد العمال وذكاءهم ونبل اعمالهم في الحرمان إذن لا تسألين «أين انا من المساواة ؟» بل تعلمين ان الطبيعة خلقتك لتكوني اشتراكية وعينتك لتوفقي قواكِ في سبيل الانسانية المرتمة الى عظمة المطالبة بحقوقها

عارف (يضحك ضاحكاً) — أعدْ ، أعدْ يا عزيزي عوني ، ليطول إعجابي بك ! أؤكد لك انك بموهبتك الخطابية هذه المقرونة برأسك الذي يشبه بانحنائه رأس زعماء الباطنية في القرون الوسطى ، تستطيع ان تكون واعظاً دينيًّا متفلتاً يأتي بالخطب الرائعة في أتفه المواضيع الممكنة

عوني (بخاطب بمودة وان ضمنت لهجته لوماً) — أتسمي موضوع البؤساء والمظلومين والمحرومين المطالبين بحقوقهم موضوعاً تافهاً ؟

عارف (بشيء من الاستياء) — ومن هم اولئك البؤساء والمظلومون والمحرومون الذين ما فتئتم تتاجرون باحتياجهم المزعوم ؟ من هم اولئك الذين تحاولون إقناعنا واقناعهم بأنهم تعساء وان لهم حقوقاً ؟

سعيد بك — سلني أنا ، أيها الفتى ، فركزي في الهيئة الاجتماعية والوظيفة

التي اشغلها في جمعيتنا أرتني ما لم يرهُ الآخرون البؤساء والمظلومون والمحرومون هم المرضى والعجزة الذين لا ملجأ لهم . هم الارامل واليتامى الذين لا عائل لهم . هم الآباء الذين فرغت أياديهم وبيوتهم ولا عمل منهُ يرتزقون . آه ، لقد رأيتُ ما يفطّر القلوب

عوني (تزعجه هذه الاوصاف التي لا أثر فيها للمذهب الاشتراكي الاعظم) — المحرومون هم خصوصاً الذين يعملون ليل نهار ليديروا حركة العالم ، ويستغلوا موارد الثروة ، ويقيموا بهجة العمران فتتنعّم طائفة المحتكرين والانانيين على حسابهم

زكي افندي (يجيد هذا الكلام كما يجيد كل كلام) — صحيح ، صحيح

عارف — لقد سمعنا هذا مراراً وتكراراً ، فهل من جديد ؟

عوني — الحاجة واحدة لا تتغير ، والفقر قديم لا تنوع فيهِ . البؤساء والمظلومون والمحرومون هم البؤساء والمظلومون والمحرومون . أفهمتَ يا عزيزي ؟

عارف — طبعاً فهمتُ ، فهمتُ وقنعت . أنا الفاهم رغماً عنهُ ، (يضحك) أنا المقتنع رغماً عنهُ . ومن ذا الذي لا يقنع بهذه الحجة المفحمة ؟ (ينقلب جاداً فجأةً) ولكنّ الحجة لا تفلح في الاقناع وإلاّ اقتضتكم ان تدعوا الناس وشأنهم ولا تشجعوهم على الوقاحة والتطاول يوماً بخطب رثائية وبحيل كاذبة مفلوطة يوماً

سعيد بك (ينظر اليه من أعالي نفثه بأنه رئيس جمعية تمول المحتاجين) يظهر يا ابني ، أدامك الله راتعاً في بحبوحة الهناء ، انك قضيت عمرك سعيداً رغيد العيش فلم تذق انائيتك ذلّ الحاجة والجهاد كما انها لم تبتهج بلذة الاحسان ومسح دموع الحزين

عارف (تتجمع انكاره على فكر واحد فيشتمل وجهه وتتألق عيناه) — وكيف عرفتَ ذلك يا سيدي ؟ من يدريك اني لم يكن لي يوماً مثل سذاجتكم هذه — عفواً عن هذه الكلمة الجريئة ؟ من يدريكم اني إنما تحجّرتُ لان الناس استغلّوا لِيني حتى امّحق وعالجوا عطفي حتى الاستنزاف ؟ انكم باسم الاحسان تبتزّون المال من الاقوياء النشيطين كما تبتزونهُ من الكسالى المترفين لتعطوا الذين لا حقّ لهم به فتنسون ان في ذلك تعلقاً للخمول وتحبيذاً للمذلة ، وان المرء إذا كان لهُ من يعولهُ مجاناً قلّ اتكالهُ على نفسهِ وفرغ عقلهُ إلاّ من الانحطاط والدعوى

سعيد بك (مشفقاً على الذين لا يفهمون) — لو كنتَ أباً وكان ابنك عريانا ، لو كنتَ زوجاً وكانت امرأتك جائعة ، لو كنتَ أبناً وكانت امك مريضة وفقرك

يحول دون الطبيب والدواء ، ولو كنت فتاةً وحيدة دون أهل والدراهم حاجتها لتبتاع ضروريات العرس إذن لفهمتَ معنى إغاثة الملهوفين

عارف (يصغي الى هذا الكلام باتباه وكأنه يولد فيه صوراً يتناقش اثرها في نفسه ثم يرفع رأسه ببطء) — اني انحني امام الحاجة الصحيحة ويأخذني الخشوع امام الالم الصادق . ومن هذه الوجهة أقدّر اعمال الجمعيات الخيرية واراى فيها تمهيداً لجمعية مقبلة كبرى تحتضن الذين يُلزم المجتمع باعالتهم . ولكن (يهبّ قائلاً كأن سوطاً ألهبه) ولكنّ ما لا احتملهُ هو ان الذين لا يخجلون دنّسوا بحقارتهم حتى معنى الالم العظيم ، واتخذوا كلمات الاستعطاء واسماء اليتامى والاطفال والجائعين إعلاناً فعّالاً لتموين الكسل والمعايب . صارت دعوى الجوع والعري مرسحاً من مراسح التمثيل واسلوباً من اساليب النصب والمضاربة . لقد رأيتُ دموعاً كاذبة في العيون المتوسلة ، وسمعتُ الحسّ اليهِ يلعنُ الكريم الذي أعطاهُ بلا حساب ، وشهدتُ حوادث الاحتيال تتتابع للضحك من البلهاء والتطاول عليهم . رأيت ذلك ففهمتُ ان للمساعدة المجانية أغلاطاً فادحة وان اعمال البرّ كثيراً ما تنتج شرّاً

السيدة جليلة (مصادقةً على ما في كلام عارف من الاصابة) — صدقتَ يا عارف افندي فان دعوى الحاجة كثيراً ما جفّفت قلب الكريم فسدّتهُ حتى امام العوز الاكيد ، ونكران الجميل من أفظع ما يُحتمل

بلانش (تهمس لانتوانت بالفرنساوية) — عارف لطيف لا بأس بهِ أتسلين ؟

انتوانت — لا بأس بهِ لولا ان حذاءهُ كثير اللمعان . ليس من المعقول ان حذاء يشعّ من تلقاء نفسهِ على هذه الصورة . ومن عيوبهِ انهُ يتكلم (محاولة اتقان اللفظ بتكلم انيق) بلثغة الحاء والخاء والعين

عوني — مع تقديري لخدمات الجمعيات الخيرية أقول اننا في هذا العصر نأبى استماع كلمات الاحسان والمحسنين . لقد ملّ الناس فضل الناس كما ملّ المتفضلون التفضّل . والانسانية التي تبذل حياتها في سبيل الانتاج لا تمدُّ يدها للاستعطاء لانها تعلم ان المسؤولية تنيلها حقوقاً وهي بتلك الحقوق تتذرّع لتعمل على توطيد المساواة . لقد ذكر عارف تمثيل الالم وتمثّل الاحتياج ، وما الدافع اليهما سوى هذا النظام الذي يستّن قوماً ويهزل قوماً . فيعمد المحرومون الى اية الوسائل ليتنعموا .

النظام القائم مبعث الشرور وخالق الكذب والغش والتهجم . استبدلهُ بنظام يسوّي بين الجميع تختفي المعايب والمناسد والمخازي التي لم يوجدها سواهُ

عارف — ما سمعتك متكلماً . يا صاحبي عوني . الآن رسخ اعتقادي بانك ولدت لتكون رئيس مدرسة اكليريكية تهيء المرسلين للوعظ والارشاد . . . إن في النظام القائم لعيوباً جمة يتحتّم إصلاحها . ولكني بينهُ وبين البيان العالميّ الشامل الذي تعدُنا بهِ الاشتراكية متردّدٌ ويكاد يكون ضلعي معهُ . إن المساواة التي تطلبونها بجلجلة وضجيج موجودة في العالم ولكن العقول المتنوعة لا تدركها على نمطٍ واحد ، وهي الطبائع المختلفة التي تنبذها هنا وتحتضنها هناك . في مدرسة واحدة تتخرّج أجيال الطلبة فيبرع واحد منهم ينتقل اسمهُ وفكرهُ على جناح الدهور ويظل مثالَ رفاقهِ بين التوسط والخمول متراوحين . هواء واحد تنشرهُ الطبيعة فيقضي على أُناسٍ ويحيي أُناساً . قانون واحد يفسّرهُ من الطحامين مئات والوف فيكون في يدّ الفذّ براءة امرىء تألّبت لاتهامهِ القرائن . عوّز واحد يعضّهُ الجماعة فيتشدّد بهِ العبقريّ ويسمو بنا الآخرون يظلّون في هوة المذلة والشكوى . فرصة فريدة تسنح لاخوين فيستفيد بها واحد ويفيد ، ويهبط بها الآخر ويؤذي . وتعودون بعد ذلك الى المناداة بالمساواة ؟ أما ذكرت في الحكايات القديمة كيف تملأ الغرف التسع والخمسين الآلات المختلفة والاسلحة والامتعة الثانوية ، ولا يوجد الشيء الجوهري الاّ في الغرفة الستين ؟ ذلك شأن الناس اذ ليست جميع الاقفال لتخفي كنوزاً وان أُخفت اشياء لها أهميتها النسبية

زكي افندي — صحيح ياناس . كلام جميل في محله

عوني — ليست الاشتراكية مسؤولة عن ايجاد النبوغ في الافراد ولكنّ غايتها تمكين كلّ فردٍ من إنماء مواهبهِ الطبيعية الى حدّها الاقصى والتمتّع بثمرة اتعابهِ على ما يحتاج . ان شركات الاحتكار وطغيان رأس المال وهتك بني الانسان ، ومزاعم الدول وتكالبها على الاستعمار ضيّقت الحياة على السائد والمسود جميعاً جاعلاً ابداً امام عيونهم شبح الحرب الطائل . وهذا المرض الفعّال لا يشفيهِ سوى عملية الاشتراكية التي تلاشي استغلال الافراد والجماعات فتتكاتف الدول والاجناس وتظهر العبقريات الكامنة آتية بمختلف الاختراعات والاكتشافات في العلوم

والفنون ، وتُستخرج من الارض جميع القوى خير الجميع . فلا نعود نرى الاكواخ قرب القصور والموت جوعاً قرب البذخ والترف. إذ ذاك ينفذ في العالم أجمع ذلك البند النظري الذي وضعتهُ الثورة الفرنساوية : « خُلق الناس احراراً متساوين »

زكي افندي — وهذا ايضاً كلام جميل يا ناس . . .

عارف — إذ ذاك يزيد التفاوت ظهوراً . . . آه ليتك يا صديقي تنفث فيَّ شيئاً من إيمانك وقبولك تلك المعاني المتعاكسة المتنافرة كشيء تقرّر وقوعهُ . ان الثورة لم توجد نظرية المساواة لان المساواة كانت ناقذة بين الاشراف الذين كانوا يعاملون بعضهم بعضاً كاشباه متماثلين . ولكنَّ ذلك البند اراد التسوية بين المراتب امام القانون لاغير، وقد الحقوهُ باستدراك خطير إذ حرموا من تلك المساواة القانونية القصّر والنساء والمجانين والمحكوم عليهم . فيكون المتساوون والحالة هذه اقل من نصف الامة . فاين المساواة :

عوني — وليس ذلك بالشيء القليل في دولةٍ خرجت مباشرة من دور الملكية والارستقراطية . وتلك التسوية القانونية برهان جليل على ان المساواة حلٌّ للناس وانهُ على ابناء الاجيال الآتية ان يتناولوها بحقوقهم وينشروها قانونية واقتصادية واجتماعية بين إخوانهم اجمعين

عارف — والحرية ؟ والعدل ؟ ماذا تفعل بالحرية والعدل اللذين هما اقدس معاني الانسانية ؟ كيف تسوّي بين العظيم والحقير بين العبقريّ الذي تقتلهُ هذه المساواة والابله الذي تفسدهُ ؟ ألا تذكر كلمة سكينة قبل موتها ! : انني افاخر بان اموت شنقاً موت الرجال! كذلك فهمت سكينة المساواة ! وكم بين النساء والرجال من سكينة ! وكم بين الناس من جانٍ لا لحاجة بل لان الجناية غريزة فيهِ ! بل كم بين الفقراء من حكيم فنوع لا يطلب زيادة لما هو فيهِ من سترة الحال ! انَّ جرمكم الاكبر ايها الاشتراكيون في تجاهلكم الطبيعة البشرية وحسبان الانسانية محصورة في الطبقة العاملة . تحسبون انفسكم آلهة منزهين عن الغلط وتريدون بتلك المساواة الآلية ان تضعوا القوت للجميع بكمية متعادلة لتقتلوا ما هو فوق القوت، لتقتلوا التفوُّق عن طريق المباراة التي كانت وستظلّ دواماً الحادّ الاعظم لبني الانسان . ألا ان الدرس والتسوية لا يكفيان ؛ والسرّ في البذرة لا في

الارض التي تُحرث وتهيأ، وذكاء بني الانسان وقوتهم تاركامنة تحتاج الى النضال، تحتاج الى احتكاك الحديد والصوان لتقدح شرارتها! وهل كانت تستطيع العمل ملايين الايدي لولا العبقرية الواحدة التي كشفت سرًّا من اسرار الطبيعة؟ فكيف تريدون ان تسوّوا بين ذلك النور الالهي في فكر وبين عمل يدٍ عملا ميكانيكيًّا لا إجهاد للعقل فيهِ؟ بل كيف تثبتون ان الرخاء يتمي النبوغ بينما نرى ذوي النبوغ غالبًا من الفقراء والمعوزين؟

عوني (يبتسم بطيئاً) — يكفيني انك تناقض نفسك وانك انت المعارض للاشتراكية من اعظم المعترفين بضرورتها

عارف — انا اعارض الاشتراكية؟ اني أنا اول من يقول بانصاف العمال ووجوب الاصلاح وان للاشتراكية المعقولة دوراً لا بدَّ ان تمثلهُ. ولكني اقول باستحالة المساواة التي لا ينتج عنها سوى الظلم والتهويش وطعن الحرية طعنة جديدة. الناس في الحياة متساهمون ولكنهم غير متساوين في براعة التصرُّف باسهمهم. والضغط الى درجة معينة على القاصر والجاهل والشرير خيرٌ للمضغوط عليهِ ولمحيطهِ جميعاً. اما الضغط على الرفيع الحرّ الكبير فجناية عليهِ وعلى العالم. في العالم اليوم آلام وفواجع لا تُطاق. ولكني اقول ان الاشتراكية لن تنجح اكثر من النظم السابقة لانها نسخة جديدة منها كما ان جميع المعاجم الجديدة نسخ عن المعاجم القديمة. لن تنجح اكثر من النظم السابقة وستأتينا بويلات مستحدثة. ومما ينذر بتلك الويلات اختلاف زعماء الاشتراكية فيما بينهم. لانهُ ايًّا كانت النظم والهيئات الحاكمة فما يجب الالتفات اليهِ في تنظيم المجتمع هو الفروق القائمة بين الناس لا وجوه التشابه بينهم. وهل يعبر الصغار اقلّ صغراً اذا تضاءل الكبار الى مستواهم؟

عوني — نحن لا ننكر ان بين الناس فروقاً وان كلاً من الناس ميسّر لعمل ما ولكننا نريد ان نقلل من جور الطبيعة ونسهل الحياة للجميع. نريد اصلاح ظلم الصدف جهد المستطاع. نريد معالجة الامراض البشرية ما امكن ونريد ادخال الجميع ميادين الرقيّ والنور لتنال الانسانية سعادة ما فتئت تجري وراءها منذ فجر التاريخ

عارف (يبتسم مشفقاً) — ما اقرب تحوُّل الارض الى سماء عند الاصفياء الى اخواننا الاشتراكيين! وما اسهل حذف المرض والانفعال والموت! قل لي

يا صوتي هل تلاشون ايضاً من قلب الانسان الشوق الملهب الى الحبّ والكره القتّال المدمّر الذي لا حدّ لهُ ؟

بلانش (لانتوانت بالفرناوية) — ماذا يقول عن الحبّ ؟ افٍّ ما اطول هذه الجلسة !

عارف (متمما دون ان يسمع كلام بلانش) — وهل تلاشون من الفطرة لذة الحرب ، وشغف الحرب وفنون الحرب في مظاهرها المختلفة ؟ اتقتلون الامل ؟ أتقتلون القنوط ؟ أتفعلون كلّ ذلك لتأتونا بسعادتكم الموعودة ؟ وهل من سعادة بعد محق جميع تلك العناصر المكوّنة كلّية السعادة . . . ؟

بي (مخاطبة الفيلسوف المصغي الى هذه المناقشة باهتمام وسكون تام) — لماذا لا تسمعنا صوتك يا استاذ ؟ لماذا لا تقضي الينا ببعض ما يفيضهُ الوحي عليك في خلواتك ؟

(الفيلسوف يبتسم ابتسامة مريرة صغيرة . بي تطلب بالحاح :) قل لنا رأيك ! اذكر لنا الطريق التي على الانسانية ان تسير فيها لتفوز بالسعادة المنشودة

الاستاذ سامي (يبتسم ابتسامة كلها عطف) — البحث عن السعادة ! ربما كان هذا ضلال الانسانية الاكبر

بي — وكيف ذلك ؟ انك تسلبنا أملاً جميلا يا استاذ

الاستاذ سامي — ان للانسان حقّا في البحث عن الامر المستحبّ لاسيما اذا كان واسطة لنموّه ، ولكن التاريخ يرينا ان الانسانية الى اليوم مريضة . مريضة باطماعها وأشواقها واحتياجها وطبيعتها ، ومرضها هو الحياة بعينها . فتتقلب على فراش المرض بتغيُّر النظم وتبديلها حاسبة بنومها على هذا الجانب الراحة والطمأنينة ، أو السعادة إذا شئتم . فلا تلبث دقائق او اعواماً حتى تشعر بالتعب كالاول فتقلب على الجانب الآخر أي انها انما تغير النظام . وهي لكذلك الى الابد

زكي افندي (معجباً مدموثاً) كلام الاستاذ استاذ الكلام ! (باسطاً ذراعيه بانتشاء) دام فضلك ينبوعاً نستقي منهُ يا استاذ ! (تمد يده بكتف انتوانت التي تتبعد مستاءة) آه ، بردون مدموازل ! كيف حصلت مني هذه الغلطة ؟ ما أجمل هذا الثوب وما أدق ذوقك ! (بسبب هذا الحادث الصغير تحدث حركة بين الحاضرين فيتململون للمرض)

أنتوانت (متثائبة) — حقّا ان من الرجال من هم بلا لطف ، كأنهم

لا يشعرون بوجود السيدات والفتيات معهم . لن ازور مي بعد هذه المرة الا يوم تكون وحدها ، أو يوم يكون المجتمعون اقل ثقلاً وغطرفة (تنظر بدلال الى تطريز ثوبها)

بلانش (ضاحكة) — مع ان زكي افندي امتدح جمال ثوبك وحسن ذوقك

انتوانت (متأففة) — هذا لا اريد منهُ إطراء ولا ثناء . (بتأفف مزج بشيء من الدلع) لقد قررتُ في سري ألاَّ تزوج الا رجلاً ذكياً حتى اذا شاء ان يمدحني مدح ببلاغة واذا اراد ان يذمني فعل بكياسة واناقة

بلانش (وقد نهضت كما نهض الجميع للانصراف واشتبك الحديث بينهم . تضحك من كلام انتوانت) — ولكن لا تستطيعين ان تقولي ان هؤلاء الرجال الثلاثة غير اذكياء ! فلو خُيرتِ بينهم فمن تختارين ؟ الفيلسوف بأسرار عينيهِ وابتسامتهِ المتمنعة ؟

انتوانت — كلاَّ ! هذا قديس لا اريد اكثر من ان اشعل امامهُ شمعةً وأضع طاقة أزهار

بلانش — اذاً عوني ؟ أو الآخر

انتوانت — عوني ؟ هذا الذي يريد ان يوزع ما عند الواحد على جميع الناس ، كما يقولون ؟ تأملي حالي اذا هجم يوماً على ثيابي وحلاي ليفرقها على نساء لم يتعبن بابتياعها ؟ تأملي حالي اذا تبرَّع بثوبي الازرق ، ثوب الرقص . . . لا لا ! هذا لا اريدهُ

بلانش — بقي الآخر ؟

انتوانت — هذا يقوم حذاءهُ المُشاع بيني وبينهُ سدًّا منيعاً ؟ كيف لا اهزأ برجلٍ صغير القدمين الى هذا الحدّ ؟ (تضحكان وتمزج ضحكاتها بالاصوات)

عارف (متمماً حديثه مع الفيلسوف) — ان كلامك ليعبّر عن كثير من افكاري يا استاذ ، واعتقدُ ان اختلاف الكائنات الحية وتغايرها شرطٌ اساسيٌّ لكلّ نموّ وكل كمال نسبيّ . وما هو تنازع البقاء ذلك المصدر الفيّاض للتنوّع والثروة الحيوية ، ما هو إن لم يكن اثباتاً مستمرًّا في تطوّره للاختلاف والتفاوت ؟ وظهور الفرد الموهوب تحريض للنوع بأسره وحثّ سريع لجوج (يختفي صوته وراء جلبة التحيات)

السيدة جليلة (مودعة ميّ) — الى الملتقى يا ابنتي . مهما احتدّت الجادلة فمثل هذه الاجتماعات يشحذ القرائح ، واحسن ما يوحيه الينا كاتب او محدّث هو ان ننتهي من الاصغاء او المطالعة وفي نفسنا استفهام جديد . لقد سررتُ بهذا الاجتماع كثيراً

انتوانت (الى بلانش بالفرنسوية دواماً) — هيا نخرج مع السيدة جليلة

عوني (مودعاً) — شكراً ، ايها الآنسة . واسمحي لي ان اردّد التعبير عن تقبّي بانك منضمة الى صفوفنا بحكم فطرتك ونزعتك الفكرية . بي اقتناع بان السعادة النسبية ممكنة لبني الانسان لاسيما وان فكرة الارتقاء والسعادة هي وليدة العصور المتأخرة بعد ان تعاونت الاديان والفلسفات على اقناع الانسان انهُ دودة صغيرة تتمرّغ في التراب امام وجه الخالق . والثورة ابدع مظهر من مظاهر الاستياء ، وشرف المرء قائم في الاستياء من الرث البائد والبحث عما يفضلهُ . شرف الانسان قائم في المطالبة بحقوقهِ . شرف الانسان قائم بانصاف الآخرين كما ينصف نفسهُ . والنفوس الكبيرة ابداً قلقة لا ترضيها غير اللانهاية

عارف (يدفعه بكوعه دفعةً خفيفة) — وهكذا تبدا بالوعظ والارشاد وتنتهي بالوعظ والارشاد . الحياة بحر ، يا صاح ، تتدافع فيها الامواج واللجج والانظمة والثورات . واذا استُبقيت الظمة الكثر من سواها فلانها انفع للناس واصلح . فلا السعادة غاية الانسانية ولا الكمال كعبتها . وما غاية الانسانية الاّ الانسانية ، وما كعبة الحياة الاّ الحياة الجبارة العاتية . أليس الامر كذلك ، يا استاذ ؟

الاستاذ سامي (بصوته الهادىء) — كما تدور الاحقاب تدور الانظمة . والبقاء للذي لا يموتُ ولا يتغير (يخرج ووراءه زكي افندي يتدحرج كل واحد بدوره)

ميّ (تودّع الزائرين وتعود الى الغرفة الخالية حيث تترجع اصداء الاصوات التي تكلمت هناك منذ حين . وبعد اطفاء الانوار تخرج الى الشرفة تحت القبة المظلمة . تسند رأسها الى الحائط وتفكر صامتة ثم تبسط يديها نحو الفضاء نحو خيالات الاشجار نحو اشعة النجوم نحو هدير الاسوات وهدير السكوت وتقول بلهجة المتهم :) — ها انذا وحدي ايها الليل فافهمني ما عليّ ان أدرك ! ها انذا مستعدة ايتها الحياة ، فسِرْ بي حيث يجب ان اسير !

(الستار)

(مي)